

المثقف الذي لا نريد

◆ بقلم رئيس التحرير

"المثقفون مذنبون كبار"1 "المثقفون أجبن الناس" "الطباع الذهنية للمثقف تغريه بتجنب المخاطر" "المثقفون خدعوا الشعب في الظروف الخطيرة كافة" "المثقف مشروع دعائي برسم الإيجار" " المثقف هو الذي رافق الحاكم المستبد وبرر سيئاته عبر التاريخ" "وكيف سيصبح السلطان ذئباً لو لم يكن المثقف قرداً؟" " المثقف بدأ المزايمة من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، فكان ملكياً أكثر من الملك وشيوعياً أكثر من ستالين، وبعثياً أكثر من عفلق" "المثقفون والفئران أكثر الكائنات استشعاراً بالخطر" 2.

هذه الأقوال وغيرها، جعلت البعض ينظرون إلى المثقف بريبة وانحسرت صورته بين: فاوست وميلتون الصامت المغمور3. يقول دستوفسكي(وأمس الأول حدثت قصة أخرى: تغدئ واحد من المؤلفين، ورفض أن يدفع ثمن الوجبة التي أصابها، وقال لصاحب الحانة: إذا كنت غير راضٍ، فساكتب مقالة أهجوك فيها هجاء لاذعاً...ومؤلف ثالث، لم يمكن طرده من أحد محال بيع الحلوى إلا ركلاً بالأرجل)4.

وصورٌ أخريات كالمثقف العضوي بحسب كرامشي، والمثقف الاختصاصي بحسب ميشيل فوكو، والمثقف الخائن بحسب جوليان بندا، وبينما يتوجه المجتمع بانظاره إلى المثقف، يُصدّم بمثقف شعاره (العام في خدمة الخاص، كل شيء من أجل المال) ولا أحد يصغي لأورهان باموك(عندما واجهت الموت فهمتُ أن النقود غير مهمة أبداً في الحياة)5. فهل يجب أن نموت لنتعلم فن الحياة؟

مثقف ينتمي إلى حزبٍ ما، ثم يستسلم لإغراءات حزبٍ آخر بمنصبٍ أو جاه، فينتقل إلى الحزب الجديد، وينال حظوةً أكبر وشهرةً أوسع، ومنصباً إدارياً لا بأس به، وتنحاز إليه وسائل

الإعلام، ويُشار إليه بالبنان، ولكن قبل أن يمنحوه كل هذا، كان لا يفتأ يهدد بأنه ينوي العودة إلى حزبه الأول فيما لو أغلقت المجلة الفلانية التي يعمل فيها، فولاءه الأول والأخير للسيد الدولار، وآخر يظهر على شاشات التلفاز ليقول (أنا كردي لكن بسبب الخوف.. الخ) والحقيقة أنه بسبب الطمع والمكاسب الشخصية التي حصل عليها، ففي كل محافظة لديه قطعة أرض، ثم وبعد عامين فقط يقول (أنا أصلي عربي ولا يوجد أية علاقة تربطني بالأكراد)، مثقف من هذا النوع حين يقترب من السلطة أو ينالها، يصير أكثر فساداً من أية سلطة فاسدة في العالم. عندما وصل المثقفون إلى السلطة بعد الثورة الفرنسية تسببوا بكارثة إنسانية أكبر بكثير من اللويسات الستة عشر" هذا المثقف يعتبر الثقافة سيطرة أجرة، توصله إلى مكاسب شخصية ومناصب سياسية، وهو كبناات الليل على ناصية الشارع، ينتظر أول فرصة ليهرعن إليها، والأولوية لمن يدفع أكثر، ورغم سوعته وعورته يقطع ويمنع ويتبجح ويتفاخر، وتراه مولعاً بالجدل، يرنو ببصره إلى السلطة لعلها تستعمله، ولا يكتفي باعترافه بتدجينه، كما فعل أحد الشعراء في عموده بمناسبة السنة الرابعة لجريدته معترفاً أن هذه الجريدة دجنته، يقلقه أن تظهر موهبة جديدة ومتحمسة ومتوهجة، وغالباً ما تكون من الطبقة المتوسطة التي تتجاهله، فتتنازل بسرعة عن حماستها وتوجهها لصالح المثقف التبريري، الذي بدأ حياته كمتقف مستقل منحاز إلى قضايا الشعب إلى المثقف الإداري، بوق السلطة الدعائي عن قدرتها الهائلة على تدجين المثقفين، فالسلطة كانت ولا زالت تلجأ إلى الترغيب والترهيب مع من يذهب غير مذهبها فكان الحكام (يعزلون من لا يجيب) (إلى القول بخلق القرآن) عن وظائفه وإن كان له رزق على بيت المال (قطع) 6.

وبسبب التنافس على الاقتراب من السلطة، ظهرت الملاحاة، وبدلاً من العمل الإبداعي اشتغل المثقفون بالكلام على بعضهم، في مزلّة أقدام ومناهات لا نهاية لها، وهم يتارجحون بين صورتين: المثقف الفزاعة الذي لا يهش ولا ينش رغم ذلك تهايه العصافير، والمثقف الذي لا يكتب ولا يقدر ولا يمدح إلا لأسباب نفعية بحتة، ونحن ننتظر منهم أن يقدموا لنا فناً وإبداعاً لأن الشعوب الأخرى حين تتعرف علينا ستبدأ بثقافتنا من خلال كتبنا ومستوى أبحاثنا وصحفنا وإذاعاتنا ونوعية الخطاب الثقافي والإعلامي... (وإذا كنت لا تعمل شيئاً، فلأنني أثرثر... أو قل على نحو أصح وأدق: إذا كنت أثرثر فلأنني لا أفعل شيئاً) 7.

يقول دلامبير (إذا نحن تدبرنا أخلاقنا وأعمالنا بل الأحاديث التي نخوض فيها فيسكون من الصعب ألا نلمح ما حصل في أفكارنا من تغيير من شأنه—ونظراً إلى سرعته—أن يحدث تغيرات أكبر.. فمن الأرض إلى زحل، ومن تاريخ السماوات إلى تاريخ الحشرات.. ومن حقوق الأمراء إلى حقوق الشعوب وكل هذا نتج عنه غليان للأفكار كمثل المد والجزر في المحيطات فهو يلقي إلى الشاطئ بأشياء ويحمل معه أشياء أخرى) 8. وهذا الكلام قبل ثلاثة قرون، فماذا كان سيقول فيلسوف القرن الثامن عشر عن تحولات عصرنا الصاروخي؟ "أي إسكافي من الإسكافيين أنفع

للمجتمع من شكسبير أو بوشكين⁹ لأن الأخيرين لم يقدماً أية حلول للبؤس الذي خلفته الثورة الصناعية بداية القرن التاسع عشر، هذا قول بيزارييف في القرن التاسع عشر، عن عمالقة الثقافة آنذاك فماذا كان سيقول عن أقزام اليوم؟

نحن في عصرٍ تتسارع فيه الأنظمة والأفكار إلى نهاياتها، وتتقدم الاختراعات وهي في بداياتها، وتتحد الأفكار مع أصدادها، ويتسابق الإنسان مع الزمن، ويتحدى الطبيعة ويخترق الفضاء ويتلاعب بخريطة الجينات الوراثية، ويتلاعب بالكلمات، ويعيد صياغة النصوص ويتلاعب بالبنية ليعطيها معاني أخرى تلائم المبادئ المتغيرة تبعاً لتغير المصالح، وأصبح العالم الكبير، قرية صغيرة، لكن ويرغم كل هذا التطور، لم يحدث من قبل أن بلغ المثقف مثل هذه الدرجة من التبعية، فلا زال المثقف في الشرق يكتب بحسب ما يرغب أسياده، ثم صار يكتب لهم، ثم صار سمساراً لهم، بدعوى الحصول على مكاسب ثقافية لا يمكن أن تتأتى بغير تقديم التنازلات، وهذا المثقف الأروطيون يستطيع بسهولة أن يحول الحسنات إلى سيئات، وبالعكس، فقد برر المثقف الغربي القنبلتين الذريتين على اليابان، بأن الأسلحة الأكثر دماراً، هي الأكثر إنسانية، لأنها تؤدي إلى نهاية سريعة للحرب، أما مثقف الشرق فلا زال تحت مظلة (قواديد كافر توارك غيره/ ومن قَصَدَ البحر استقلَّ السواقياً)، نحن في عصرٍ أصبح من واجب الأعمال الإبداعية فيه، أن تطلق الرصاص.

وفي خِصْم كل هذه السلبيات، تبقى الثقافة معرفة، والمعرفة سلطة تسيطر كقوة، والقوة تضعف بدون معرفة تنظمها وتقودها نحو الأهداف المتوخاة، والمعرفة لها معاني، منها المعنى الثقافي، الذي يبدأ بأن يذكر المثقفون أنفسهم ويوقظوا ضمائرهم للأخطار والضغوطات التي يتعرضون لها، وفي جولة عبر التاريخ، حيث لم يدخر المثقفون وسيلة في توجيه الجهود للارتقاء بشعوبهم نحو حياة أفضل، من خلال التغيير الذي ينشدونه ومن خلال الإعلاء من شأن العقل والتوسع بحثاً في المجالين العلمي والإنساني، وكما أن غياب التأصيل في مجال الدين أثمر قبول البدعة والتطرف وانتشارهما، فإن غياب المفكر في المجتمع أثمر قبول الخرافات وتصديقها، ولقد قدم المثقفون التضحيات وواجهوا التصلب الذي كانت تبديه السلطة السياسية في سبيل تكريس مبادئها وتصوراتها وفرضها على المجتمع، وشارك المثقف الحقيقي هموم شعبه منذ فلاسفة اليونان القدماء وإلى اليوم، فقام بفضح المبادئ البالية والمنافية للعدالة في المجتمع، ولا يمكن للمثقف أن يكون فاعلاً في مجتمعه ما لم يستوعب تراثه الثقافي ويستوعب ما في ثقافة مجتمعه من قيم الفضيلة وكرامتها وعار الرذيلة وسوء عاقبتها وما في ذلك من سبب كافٍ لمحبة الأولى والترفع عن الثانية، والمثقف هو النسخ الذي ينقل أصالة التراث والمبادئ من جذور الشجرة إلى أغصانها وأوراقها، ولهذا فإن المجتمع يموت بموت المثقف كما

تموت الشجرة إذا جفَّ نسغها، والجذور عرضة للموت إذا ركدَ ماؤها وأسن ولم يتجدد، وإذا لم تتعرض التربة المحيطة للهواء النقي من وقت إلى آخر (العزق)، فالمثقف الذي يرصد رياح التغيير وتيارات التجديد ويثري بها القيم والتقاليد الموروثة دون أن يلغيها قد يكون موجوداً في العديد من المجتمعات ولكن الأنظمة القمعية والعسكرية تشتري كلمته، أو تلغي وجوده أو تغيبه لأنَّ بقاءها واستمرارها مرهون بإلغاء سلطة المثقف وبالتالي إلغاء حقوق الإنسان، ولعل هذا هو أحد التفسيرات للتخلف الذي تعاني منه دول العالم الثالث، والعالم العربي منذ ألف عام وحتى الآن..

الهوامش

- 1- جان بول سارتر- دفاع عن المثقفين- ترجمة جورج طرايبيشي-ط1-1973- دار الآداب- بيروت- ص9.
- 2- صلاح عبدالصبور- حياتي في الشعر-1977- دار العودة-ط2- بيروت-ص98 .
- 3- فاوست شخصية حكاية من التراث الشعبي الألماني باع روحه للشيطان، وفي ميلتون الصامت إشارة ت.س. إليوت الساخرة إلى أبيات من أخلد الشعر الإنكليزي، وردت في مراثية جراي المشهورة قالها ميلتون في مقبرة ريفية يرثى موتي الفقراء، والأبيات هي (كم تحمل كهوف المحيط المظلمة العميقة من جوهرة كاملة الصفاء والبهاء/ وكم تنبت من زهرة تحمر خجلاً وهي لا ترى/ ويضيع جمالها في هواء الصحراء/ ربما رقد هنا هامبدون قروي قام بقلب جسور في وجه جبار أرضه الصغير، أو ملتون صامت مغمور/ أو كرومويل لم يحمل جريرة دماء وطنه)وتزعم أسطورة ملتون الصامت المغمور: أن كثيراً من الكفاءات الممتازة بل كثيراً من العبقريات تُضيع لنقص التعليم ت.س. إليوت-ملاحظات نحو تعريف الثقافة-ترجمة د.شكري محمد عباد-لا يوجد تاريخ-المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر-ص123.
- 4- دستوفسكي- المؤلفات الكاملة: الجريمة والعقاب/ج1- ترجمة د. سامي الدروبي- ط2-1985- دار ابن رشد-بيروت-ص185.
- 5- أورهان باموك- اسمي أحمر- ترجمة عبدالقادر عبدالي-2000- دار المدى-ص8.
- 6- ابن كثير-1358-البداية والنهاية-تصحیح عبدالحفيظ سعد عطية-مطبعة السعادة-القاهرة-ج10-ص272.
- 7- دستوفسكي- الجريمة والعقاب/ج1- ترجمة د. سامي الدروبي- ط2-1985- دار ابن رشد-بيروت-ص8.
- 8- د.علي أومليل-1998- ط2- السلطة الثقافية والسلطة السياسية- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت-ص237. و جين لورون دلامبير(1717-1783) فيلسوف وعالم فرنسي دعتة الإمبراطورة كاترين لزيارة روسيا، وترجمته بأن يقبل بتعليم ابنها ولي العهد: بولس، ولكن دلامبير رفض الدعوة.
- 9- آراء بيزارييف الرديكالية حول مذهب المنفعة: ديوستوفسكي- المؤلفات الكاملة: الجريمة والعقاب/ج2- ترجمة د.سامي الدروبي-1985- دار ابن رشد- بيروت-ص170.